استمارة مشاركة

ملتقى وطني حول:

الحياء في منظومة القيم الإسلامية والواقع المعاصر

- مقاربة معرفية تكاملية -

يوم 9 ماي 2023

الاسم: **ليلى** اللقب: **سية** تحت إشراف المشرف: **أ.د. عبد القادر بن حرز الله**

الوظيفة: **أستاذ التعليم الثانوي** الرتبة: / المؤسسة: **ثانوية حشاشنة قدور كشيدة-باتنة**

الهاتف: **0698557000** البريد الإلكتروني: **leila.sia@univ-batna.dz**

عنوان المداخلة: **خلق الحياء في منظومة المقاصد الأخلاقية –تأصيلا وتفعيلا-**

المحور: **المحور الأول/ الحياء في منظومة القيم الإسلامية (2-المقاصد الشرعية والعمرانية للحياء)**

مقدمة:

تهدف الشريعة الإسلامية للسمو بالإنسان في أعلى درجات الكمال الإنساني من خلال تزكية نفسه وتقويم سلوكه وإصلاح محيطه ومجتمعه، لذلك جاءت تعاليمها مشبعة بالمقاصد الأخلاقية والمثل العليا، فمكارم الأخلاق روح الشريعة وغايتها الأولى، وتُعتبر حجر الزاوية في البناء التشريعي وفي ذلك يقول الشاطبي: "الشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق"...

ومن مكارم الأخلاق الجامعة التي تتصل بها باقي القيم الأخرى وتنبني عليها وتتفرع عنها: الحياء؛ إذ هو قيمة خُلقية أولاها الإسلام أهمية كبيرة نظرا لارتباطها الوثيق بالإيمان كما قررت شواهد السنة النبوية ذلك، وعليه حثت الشريعة الإسلامية على التخلق بخلق الحياء للنساء ورجالا على حد سواء، أفرادا كانوا أو جماعات، بل وجعلته مقصدا أخلاقيا وحرصت على حفظه بكل الوسائل لما في ذلك من سد لذريعة الوقوع في الانحلال والانحراف الأخلاقي وصيانة للمجتمع الإسلامي.

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الورقة البحثية للتنقيب عن مصطلح الحياء وإثبات أنه مقصد شرعي كلي يجب مراعاته مع بيان رتبته في منظومة المقاصد الأخلاقية، وذلك من خلال خطة البحث التالية:

المبحث الأول: الأخلاق في منظومة المقاصد الشرعية

المطلب الأول: حصر الأخلاق في باب التحسيني

المطلب الثاني: المقاصد الأخلاقية ورتبها الثلاث.

المبحث الثاني: رتبة الحياء في منظومة المقاصد الأخلاقية.

المطلب الأول: مقصد الحياء

المطلب الثاني: الحياء من المقاصد الأخلاقية الضرورية.

المطلب الثالث: خلق الحياء مقصد أخلاقي كُلي

خاتمة

المبحث الأول: الأخلاق في منظومة المقاصد الشرعية

المطلب الأول: حصر الأخلاق في باب التحسيني

والمقرر عند علماء الأصول أن الأخلاق تندرج في باب التحسيني الذي يتصدره عنوان مكارم الأخلاق، حيث صرحوا بذلك من خلال تعريفهم للمقاصد التحسينية؛ نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

-تعريف الرازي فقد عرّفها بقوله: "وأما التي لا تكون في محل الضرورة ولا الحاجة فهي التي تجري مجرى التحسينات وهي تقرير الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم"[1]

-وعرفها الشاطبي: "وأما التحسينات، فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"[2].

1- الرازي، **المحصول**، 5/160-161.

2- الشاطبي، **الموافقات**، 2/22.

- وقال الجويني: "وأما الضرب الثالث: وهو ما لا ينتسب إلى ضرورة ولا إلى حاجة وغايته الاستحثاث على مكارم الأخلاق"[1].

وغيرها من التعاريف التي تصب في نفس المعنى والتي تؤكد على أن مرتبة التحسينيات تدخل في مكارم الأخلاق، فكل ما يحث على الأخلاق فهو في هذا الباب، ويندرج تحت التحسيني وهو الجامع أو المحور الذي يدور في فلكه.

وقد تعرض هذا التصنيف لانتقاد كبير في الفكر الإسلامي المعاصر ووقع فيه إشكال، حيث فُهم منه أن مكارم الأخلاق من كماليات هذا الدين، في حين أن غاية البعثة المحمدية هي إتمام مكارم الأخلاق.

وبتتبع كلام العلماء في علم المقاصد وتقسيمهم لمراتبها، يزول هذا الإشكال من خلال النقاط التالية:

أولا: كيف للأخلاق أن تكون من كماليات هذا الدين، والمقصد العام للدين الإسلامي هو السمو بالإنسان في أعلى درجات الكمال الإنساني من خلال التخلق بأخلاق الإسلام وتزكية نفس المكلف وتقويم سلوكه وإصلاح محيطه ومجتمعه.

وكيف للأخلاق أن تكون من كماليات هذا الدين، وقد جاءت تعاليمه وشعائره مشبعة بالمقاصد والغايات الأخلاقية والمثل العليا، فمكارم الأخلاق روح الشريعة وغايتها الأولى، وتُعتبر حجر الزاوية في البناء التشريعي وفي ذلك يقول الشاطبي: "الشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق"، وهو ما تُعضده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تصرح على أن غاية البعثة المحمدية هي إتمام مكارم الأخلاق والتزكية، فكمال الإيمان لا يكون إلا بالرقي في أعلى درجات الأخلاق؛ لذلك قال رسول الله ρ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"[2]، ويقول ابن القيم: "الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين".

فالدين والأخلاق متلازمان لا انفكاك لأحدهما عن الآخر فلا أخلاق بلا دين ولا دين بلا أخلاق، فغاية الدين غاية أخلاقية.

ثانيا: هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن تصنيف الأخلاق في الرتبة الثالثة من المقاصد ليس على ظاهره، ذلك أن المقاصد برتبها الثلاث الضروريات والحاجيات والتحسينيات هي حلقات متكاملة متداخلة لا ينفك بعضها عن بعض ومتمة لبعضها البعض؛ وهو ما بيّنه الشاطبي عند شرحه لرتب المقاصد ومكملاتها؛ فقرر:

- أن الحاجي متمم للضروري، والتحسيني متمم للحاجي[3].

- كما "أن مجموع الحاجيات والتحسينات ينتهض أن يكون كل واحد منهما كفرد من أفراد الضروريات، وذلك أن كمال الضروريات من حيث هي ضروريات إنما يحسن موقعه حيث يكون فيها على المكلف سعة وبسطة، من غير تضييق ولا حرج وحيث يبقى معها خصال معاني العادات ومكارم الأخلاق موفرة الفصول، مكملة الأطراف، حتى يستحسن ذلك أهل العقول، فإذا أخل بذلك، لبس قسم الضروريات لبسة الحرج والعنت، واتصف بضد ما يستحسن في العادات، فصار الواجب الضروري متكلف العمل، وغير صاف في النظر

1- الجويني، **البرهان في أصول الفقه**، 84/2.

2-

3- الشاطبي، **الموافقات**، 25/2.

الذي وضعت عليه الشريعة، وذلك ضد ما وضعت عليه، وفي الحديث: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1]،

- "أن كل حاجي وتحسيني إنما هو خادم للأصل الضروري ومؤنس به ومحسن لصورته الخاصة، إما مقدمة له، أو مقارنا، أو تابعا، وعلى كل تقدير، فهو يدور بالخدمة حواليه، فهو أحرى أن يتأدى به الضروري على أحسن حالاته"[2].

وقد أبرز الإمام الجويني أيضا طبيعة العلاقة بين المقاصد الكلية والأخلاق في قوله: "ومن العبارات الرائقة الفائقة المرضية في الإعراب عن المقاصد الكلية في القضايا الشرعية: أن مضمونها دعاء إلى مكارم الأخلاق، ندبا واستحبابا، وحتما وإيجابا، والزجر عن الفواحش وما يخالف المعالي، تحريما وحظرا، وكراهية تبين عيافة وحجرا، وإباحة تغني عن الفواحش"[3].

فمن خلال تمعن هذه النصوص يظهر جلي الترابط الوثيق بين المقاصد والأخلاق، فالمقاصد بمراتبها الثلاث غايتها تخلق الإنسان بمكارم الأخلاق، وتحليه بها في جميع أفعاله وسلوكه وفقا للنموذج النبوي، كما أن أصول الأخلاق جارية في أصول التشريع بل وفي سائر الشرائع السماوية الأخرى.

فالأخلاق لحمة المقاصد، وموضوعها هو تهذيب وتزكية الانسان وتقويم سلوكه، لذلك كل قيمة خلقية أمر الله بها أو نهى عنها جاءت تقوّم جانبا من أفعاله وأقواله.

وبناء على الاعتبارات السابقة يظهر أن الأخلاق لا يمكن حصرها فقط في باب التحسيني بل هي حاضرة في باب الضروري والحاجي أيضا.

ثالثا: قال فهمي محمد علوان: "ولئن كانت الأخلاق والقيم في أغلب الأحيان قد ظهرت مبعثرة متفرقة، فإنها تنتظم في مجموع الضروريات والحاجيات والتحسينيات التي تتكامل وتتفاعل لكي تنتج أعلى القيم"[4].

وهذا الكلام يقودنا إلى الحديث عن مراتب الفضائل الخلقية أو بالأحرى عن المقاصد الأخلاقية وعن مراتبها المختلفة، فالأخلاق التي أمر الله بها أو نهى عنها كثيرة متعددة، منها ما يكون في باب الضروري، ومنها ما يكون في باب الحاجي زمنها ما يكون في باب التحسيني. لذلك فإن العلماء حين حصروا الأخلاق في باب التحسيني، إنما قصدوا بذلك المقاصد الأخلاقية التحسينية، وهذا ما سنفصله فيه في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: المقاصد الأخلاقية ورتبها الثلاث.

المقاصد الأخلاقية هي: "الغايات الأخلاقية التي ابتغاها الله تعالى من تشريعه للأحكام الشرعية، والتي تسعى إلى تحقيق الكمال البشري للإنسان"[5].

وإذا نظرنا إلى الأخلاق بمكارمها كالعدل والإحسان والأمانة والصدق والحياء... ومساوئها كالشجع والطمع والخيانة والكذب... وجدناها كثيرة ومتعددة لتعلقها بالسلوك

1- الشاطبي، **الموافقات**، 41/2.

2- الشاطبي، **الموافقات**، 42/2.

3- الجويني، ركن الدين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، **غياث الأمم في التياث الظلم**، ت: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط2، 1401هـ، ص181.

4 - علوان، فهمي محمد، **القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1989م، ص10.

5 - سية، ليلى، **المقاصد الأخلاقية وتجلياتها في المنظومة الأصولية والفقهية**، مقال منشور في مجلة جامعة الأمير عبد القادر، المجلد 33، العدد2، 2019م، 2019/09/30م، ص308.

البشري، إلا أنها ليست على درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب أهميتها وأثرها على الفرد أو الجماعة.

وقد تكلم الإمام الشاطبي عن مراتب مكارم الأخلاق ومساوئها، وصنفها إلى صنفين بحسب ورود الأمر بها أو النهي عنها في النص الشرعي الأخلاقي؛ حيث قال: "كل خصلة أمر بها، أو نهي عنها مطلقا من غير تحديد ولا تقدير فليس الأمر أو النهي فيها على وزان واحد في كل فرد من أفرادها، إلا أن مجيئها في القرآن على ضربين:

أحدهما: أن تأتي على العموم والإطلاق في كل شيء، وعلى كل حال، لكن بحسب كل مقام، وعلى ما تعطيه شواهد الأحوال في كل موضع، لا على وزان واحد، ولا حكم واحد، ثم وكل ذلك إلى نظر المكلف؛ فيزن بميزان نظره، ويتهدى لما هو اللائق والأحرى في كل تصرف، آخذا ما بين الأدلة الشرعية والمحاسن العادية؛ ...

والضرب الثاني: أن تأتي في أقصى مراتبها، ولذلك تجد الوعيد مقرونا بها في الغالب، وتجد المأمور به منها أوصافا لمن مدح الله من المؤمنين، والمنهى عنها أوصافا لمن ذم الله من الكافرين... فكان القرآن آتيا بالغايات تنصيصا عليها من حيث كان الحال والوقت يقتضي ذلك ومنبها بها على ما هو دائر بين الطرفين حتى يكون العقل ينظر فيما بينهما بحسب ما دله دليل الشرع فيميز بين المراتب[1]".

فقد صنف الأخلاق بحسب ورودها في الخطاب الشرعي إلى: أخلاق ضرورية واجبة يجب على كل مسلم أن يتحلى بفضائلها ومحاسنها كما يجب عليه التخلي عن مساوئها. وهي كل الأوامر والنواهي الأخلاقية التي اقترن بها الثواب والجزاء وكانت أوصافا للمؤمنين، وصنف آخر هي الأخلاق المطلقة التي حكمها موكول إلى نظر المكلف "فيزن المؤمن أوصافه المحمودة؛ فيخاف ويرجو، ويزن أوصافه المذمومة فيخاف أيضا ويرجو"[2].

وبناء على ما سبق، فإن المقاصد الأخلاقية والقيمية كثيرة ومتعددة لها مراتب متفاوتة هي أيضا كما تتفاوت رتب المقاصد بين الضروري والحاجي والتحسيني، فمنها ما ينزل في رتبة الضروري، ومنها ما يكون في رتبة الحاجي، ومنها ما يلحق برتبة التحسيني.

والضابط في تحديد هذه المراتب هو نفس ضابط تحديد مراتب المقاصد الشرعية، وهو: "النظر إلى درجة المصلحة أو المفسدة التي تعلقت بكل أمر وبكل نهي، فعلى قدر تحصيل الأولى ودرء الثانية يأخذ الحكم التكليفي درجته من حيث الترتيب المقاصدي، فإن كان ذلك مهما جدا عد من الضروريات وإن كان قليل الأهمية فمن التحسينيات وما كان متوسطا بين ذلك فمن الحاجيات"[3].

فتكون مراتب المقاصد الأخلاقية بحسب تحقيقها لمراتب المصالح، فما يحقق الضروري يلحق بالضروري وما يحقق الحاجي يلحق بالحاجي وما يحقق التحسيني يلحق بالتحسيني، وفي ذلك قالت إحدى الباحثات: "فليست كل الأخلاق جملة من الصفات الحسنة التي تكمل سلوك الأشخاص، وإنما منها مجموعة من الصفات الضرورية لهذا السلوك، بحيث إذا فقدها الفرد، نزل عن رتبته في الأنام وعد في صفات الأنعام، كما ليست الأخلاق

---

1 - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، **الموافقات**، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ-1997م، 3/392- 393-394-395.

2 - الشاطبي، **الموافقات**، 3/400.

3 - اليندوزي، ريحانة، **التحقيق في دعوى حصر المكارم الخلقية في المقاصد التحسينية**، بحث منشور في كتاب مقاصد الشريعة والسياق الكوني المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط:1، 1434هـ-2013م، ص212.

كلها جملة من محاسن العادات التي يتصف بها تعامل المجتمعات فيما بينها، وإنما منها مجموعة من العادات الضرورية لهذا التعامل، بحيث إذا فقدها المجتمع اختل نظام الحياة فيه وأصبح معدودا في القطعان"[1].

وعودا على بدء، وبتطبيق هذا المعيار على خُلق الحياء، يتضح ابتداء أن خلق الحياء يكون في رتبة المقاصد الأخلاقية الضرورية، وذلك بالنظر إلى درجة المصلحة التي تتحقق بالتخلق به حيث تصل إلى أعلى درجاتها فيكون الحياء هو الجالب للخير كله، وما اقترن بشيء إلا زانه، وكذلك بالنظر إلى درجة المفسدة التي تترتب عند فقدانه حيث يكون الهلاك والفساد في المجتمع، وهو ما يميز رتبة الضروريات.

وسنأتي على إثبات هذا الكلام في ما يلي.

المبحث الثاني: رتبة الحياء في منظومة المقاصد الأخلاقية.

المطلب الأول: مقصد الحياء

قبل أن نثبت أن خلق الحياء مقصد شرعي، لا بأس أن نعرج أولا على المدلول اللغوي والشرعي لمصطلح الحياء.

الفرع الأول: تعريف الحياء

أولا/ تعريف الحياء لغة:

الحياء مصدر حيّي، أصله من (ح ي ى)، وقيل: من (حيا)، وقيل من (ح ي و).

جاء في مقاييس اللغة: "(حي) الحاء والياء والحرف المعتل أصله الآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة"[2].

وقال ابن منظور: الحياء هو "التوبَة والحِشْمَة"[3]، وفي المصباح المنير: الحياء هو: "الِانْقِبَاضُ وَالِانْزِوَاءُ"[4].

وقال الراغب الأصفهاني: "الحياء هو انقباض النّفس عن القبائح وتركه"[5].

"وَالْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَيَاةِ"[6]: أي الحياء له تعلق بحياة القلب؛ فكلما كان القلب حيا كلما كان الانسان حيي، فإذا مات القلب ذهب حياء الشخص.

فاستعمالات أهل اللغة لمادة (حيي) تدور إذن حول معنى واحد هو الاحتشام مع انقباض النفس وانزوائها؛ خوفاً من مُواقعة القبيح، مخافة اللوم والعيب.

ثانيا/تعريف الحياء اصطلاحا

تعدّدت تعاريف العلماء لمصطلح الحياء، إلا أن الذي يظهر لنا بعد النظر في حدودها ومراميها هو اختلاف عباراتهم في التعبير عن الفعل الوجداني والنفسي للحياء ابتداءً واتفاقهم بعد ذلك في نهاية هذا الفعل وهو ترك الفعل القبيح، ونذكرها على النحو التالي:

1- الفعل الوجداني للحياء هو حالة من الانكسار تعتري النفس:

---

1 - اليندوزي، ريحانة، **التحقيق في دعوى حصر المكارم الخلقية في المقاصد التحسينية**، ص212.

2- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، 122/2.

3- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 1414 هـ، 217/14.

4- الفيومي، أحمد بن محمد، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، 160/1.

5- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت-لبنان، ط1، 1412 ه، ص270.

6- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء**، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1418هـ-1997م، ص69.

فإذا نظرنا في هذا التعريف "أصل الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يُعاب به ويذم"[1]، وجدنا أنه يبيّن بداية الفعل الوجداني للحياء، والذي يُعتبر حالة من الانكسار تعتري النفس، ثم يبيّن بعد ذلك ثمرته في السلوك؛ وهي ترك الفعل القبيح والتصدي للقوى الحيوانية وردها عن أفعالها[2].

لذلك قال الرازي: "الحياء له أول وهو انكسار يحصل في النفس، وله غرض وهو ترك الفعل"[3].

2- الفعل الوجداني للحياء هو حالة من استقباح فعل الشيء

وقد عبّر ابن عرفة عن حالة الانكسار بالاستقباح فقال: "الحياء هو استقباح فعل الشيء بحالة ما دون نقص فيه، والاستحياء استقباح فعله لنقص فيه"[4].

3- الفعل الوجداني للحياء هو هيبة في القلب

أما الفيروزآبادى فقد عبّر عن حالة الانكسار بهيبة في القلب، حيث قال: "الحياء وجود الهَيْبة في القلب مع وحشة ممّا سبق منك إلى ربّك"[5].

4- الفعل الوجداني للحياء هو انقباض النفس

كما عُبر عنه أيضا بانقباض النفس، فقال النسفي: "وهو انقباض النفس عن القبائح وعن التَّفريط في حقّ صاحب الحقّ"[6]، وهو قريب من تعريف الراغب الأصفهاني: "هو انقباض النّفس عن القبائح وتركها"[7]، وكذا من تعريف الجرجاني: "الحياء: انقباض النفس من شيء وتركه حذرًا عن اللوم فيه"[8].

وعرّفه القرطبي بقوله: "الحياءُ: انقباضٌ وحِشْمَةٌ يجدها الإنسانُ مِنْ نفسه عندما يُطَّلَعُ منه على ما يُسْتَقْبَحُ ويُذَمُّ عليه"[9]، واختصره تاج القراء بقوله: "الحياء انقباض يدل على خلق كريم"[10].

1- النسفي، حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، **تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت-لبنان، ط1، 1419هـ-1998م، 71/1؛ الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1420هـ، 361/2؛ أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط1، 1420هـ، 191/1.

2- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي**، جامعة أم القرى-كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-2005م، 142/2.

3- الرازي، **تفسير الرازي=مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، 223/1، وهاهنا قاعدة كلية، وهي أن جميع الأعراض النفسانية -أعني الرحمة، والفرح، والسرور، والغضب، والحياء، والغيرة، والمكر والخداع، والتكبر، والاستهزاء- لها أوائل، ولها غايات.

4- ابن عرفة، محمد بن محمد الورغمي، **تفسير ابن عرفة**، أبو عبد الله، تح: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، ط1، 1986م، 205/1.

5- الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 515/2.

6- الفيروزآبادى، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، 515/2.

7- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص270.

8- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، **التعريفات**، تح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1403هـ-1983م، ص94.

9- القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم، **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، تح: محيي الدين ديب ميستو وآخرون، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق-بيروت، ط1، 1417هـ-1996م، 135/1.

10- الكرماني، برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر، **غرائب التفسير وعجائب التأويل= تاج القراء**، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة-السعودية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت-لبنان، 128/1.

5- تغيّر يحصل في الوجه والقلب عند فعل شيء قبيح

للرازي تعريف آخر بيّن فيه تفاعل ظاهر الانسان مع فعله الوجداني الذي ينعكس عادة، فيظهر على الوجه بعد اقترافه للفعل القبيح، فقال: "الحياء عبارة عن تغيّر يحصل في الوجه والقلب عند فعل شيء قبيح"[1].

فالملاحظ من خلال هذه التعاريف ما يلي:

- عبّر العلماء عن الفعل الوجداني للحياء الذي له أثر كبير على سلوك الفرد عنه بعبارات متعددة ومترادفة كالانكسار والانقباض والاستقباح وهيبة القلب... ومهما تعددت هذه الألفاظ فهي في الحقيقة تحمل نفس المغزى والمعنى، حيث اتفقوا في أثر هذا الفعل النفسي؛ وهو الترك، أي ترك كل ما يُعاب ويُستقبح.

فكل هذه التعاريف على كثرتها لم تخرج عن المعنى اللغوي لمصطلح الحياء. وهو تغيُّرٌ وانكسارٌ وانقباضٌ يعتري النَّفس الإنسانية خوفا مما يعاب به أو يُذَمّ.

- تؤكد كل التعاريف التي وضعها العلماء على معنى واحد وهو أن الحياء حالة وجدانية نفسية لها بدايتها ونهايتها، حيث تبدأ من "التغير الجسماني الذي يلحق الإنسان من خوف أن يُنسب إلى القبيح، وأما النهاية فهو أن يترك الإنسان ذلك الفعل"[2].

وعليه؛ فإن ذلك الفعل الوجداني أو الحالة الشعورية التي تعتري النفس هي بمثابة وازع خُلقي تؤثر في سلوك صاحبها سواء بثنيه وصرفه عن كل قول وعمل قبيح، أو عبر حثه إلى سلوك سبيل الفضيلة والرقي بأخلاقه في درجات الكمال التي لا تتأتى لمن افتقد الحياء.

وهو ما أشار إليه الجنيد –رحمه الله- حين عرّف الحياء بأنه حالة بين طرفين، فقَالَ: "الْحَيَاءُ رُؤْيَةُ الْآلَاءِ، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءُ"[3].

فالحياء خُلق رفيع له مقصد أخلاقي، وهو الوازع النفسي والخُلقي الذي يدفع بصاحبه إلى ترك المعاصي ورد الأفعال القبيحة، فيرفع الإنسان من حضيض شهواته إلى الرقي به في مدارج الكمال البشري والسمو به أخلاقيا، فيتخلق به ويحقق أبعاده ومراميه، وهذه الحالة لا تتأتى لأي كان، بل تكون لمن كان له قلب حي وعامر بالإيمان.

الفرع الثاني: هل الحياء مقصد شرعي؟

ولإثبات أن الحياء مقصد شرعي نتبع مسالك الكشف عن المقاصد التي وضعها الشاطبي؛ وهي[4]:

أولا/مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي:

جاء في الحديث الشريف الأمر بالاستحياء من الله: قال رسول الله ρ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[5] .

1- الرازي، **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، 141/1.

2- الرازي، **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، 361/2.

3- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1416هـ-1996م، 249/2.

4- الشاطبي، **الموافقات**، 134/3-165.

5- الترمذي، **سنن الترمذي**، 637/4؛ أحمد، **مسند أحمد**، 539/3.

وطلب الحياء من الله يعتبر أمر من الأوامر الشرعية التي جاءت مقصودة للشارع بالقصد الأول لا الثاني، وعدم إيقاعه أي عدم الحياء من الله يخالف مقصوده، فيتحقق بذلك القيد الأول –الامر الابتدائي-.

الأمر بالحياء جاء صريحا لا ضمنا، فتحقق القيد الثاني-التصريحي-.

فيكون بتحقق هذه القيود في النص النبوي تحقق للمسلك الأول مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي. فينبي عليه أن الحياء مقصد شرعي اعتبره الشارع الحكيم يجب مراعاته.

ثانيا/ اعتبار علل الأمر والنهي

اعتبار الشاطبي أن علل الأمر والنهي علامات دالة على المقصد الشرعي، فحيث وجدت وجد مقتضى الأمر والنهي من القصد وعدمه، حيث قال: "فإذا تعينت؛ علم أن مقصود الشارع ما اقتضته تلك العلل من الفعل أو عدمه، ومن التسبب أو عدمه"[1].

لماذا أمرنا الله تعالى بالتخلق بخلق الحياء وما هي العلة في ذلك؟ الجواب: أن العلة تكمن في أن الحياء هو المانع عن ارتكاب المعاصي والباعث عن ترك القبائح، فعن أبي مسعود τ قال: قال النَّبيُّ ρ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ[2]».

فهي علة صريحة معلومة في تشريع خلق الحياء حيث طُلب من الأفراد والجماعات التخلق به، فتحقق بها المسلك الثاني في اعتبار علل الأوامر والنواهي. فيكون بذلك خلق الحياء مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ثالثا/المقاصد الأصلية والتبعية:

ولإثبات هل خلق الحياء من المقاصد الأصلية أم التبعية، سنثبت فيما يلي أنه أساس الأخلاق التي تبنى عليه بقية الأخلاق والفضائل[3].

المطلب الثاني: الحياء من المقاصد الأخلاقية الضرورية

ولبيان مرتبة مقصد خُلق الحياء في منظومة المقاصد الأخلاقية، نتساءل عن درجة المصلحة التي يحققها الحياء إذا تخلق الإنسان به، وعن درجة المفسدة التي تترتب عن فقدانه سواء عند الفرد أو الجماعات.

إن للحياء كقيمة دينية واجتماعية منزلة معتبرة في منظومة المقاصد الأخلاقية، ومتى فرّط الناس في الحياء هلكوا أفرادا وجماعات، فهو كما قال ابن القيم: "الخُلق الذي لولاه لم يُقر الضَّيف، ولم يؤدَّ لعبدٍ أمانة، ولا سُتر له عورة، ولا امتنع عن فاحشة"[4]. ولتبيان هذه المنزلة يجدر بنا أن نبيّن مدى تحقق المصلحة حين التزام الناس بهذا الخلق، ونبرز المفسدة المترتبة عن غيابه لدى الأفراد والجماعات.

إنه مما لا شك فيه أن انتشار المعاصي في المجتمعات سيؤدي حتما إلى تفشي الفساد، قال تعالى: چ□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ چ [الروم:41]، يقول الإمام الطبري في تفسير هذه

1- الشاطبي، **الموافقات**، 3/135-136.

2 - البخاري، **صحيح البخاري**، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة-البحرين، بيروت-لبنان، ط3، 1407ه-1987م، رقم الحديث: 5769، باب: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، 5/2268.

3- ينظر: المبحث خلق الحياء مقصد أخلاقي كُلي.

4- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، **مفتاح دار السعادة**، تح: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1432 هـ، 2/788-789.

الآية: "ظهرت المعاصي في بر الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه"[1].
ويعضد هذا المعنى قول النبي ρ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي، عَمَّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ[2]».

كما أنه لا شك في أن الحياء هو الحائل المنيع بين الناس وارتكاب المعاصي، فعن أبي مسعود τ قال: قال النَّبيُّ ρ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ[3]»، فمن لم يستح فإنَّه سيصنع ما يشاء، وإذا غاب الحياء ارتكب الناس ما شاؤوا من أفعال؛ حسنة كانت أو قبيحة، فالحياء هو الذي يمنعهم عن فعل القبيح ويردعهم، وعليه إذا فُقد الحياء ذهبت الأخلاق، وارتكبت الفواحش وانتشرت الموبقات.

ولقد حدثنا الله Y في كتابه الكريم كيف أهلك الأقوام السابقين بسبب انحرافهم عن طريق الإيمان والأخلاق، وانغماسهم في الضلالة والمعصية، فقال Ψ: ﭽ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ [التوبة:70]، فلقد ظلم هؤلاء الأقوام أنفسهم بكفرهم وعصيانهم، وبلغت بهم دونيتهم وتجردهم من الحياء من الله وخوفه أن انحدروا إلى دركات دون البهيمية؛ كما حدث لقوم لوط –عليه السلام-، فكان حقا على الله عذابهم وهلاكهم.

قال ابن القيم: "تأمَّل هذا الخُلق الذي خُصَّ به الإنسانُ دون جميع الحيوان، وهو خُلق الحياء الذي هو مِنْ أفضل الأخلاق وأجلِّها، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّة، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانيَّة إلا اللحمُ والدَّمُ وصورتهما الظَّاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء"[4].

فإذا افتُقد الحياء في الفرد أطلق العنان لغرائزه وأصبح عبدا لشهواته، ومن ثمّ غرق في المعاصي، وهوى إلى مراتب من الانحدار الأخلاقي والتردي القيمي تنافس البهائم في غرائزها، فتجده حينئذ يستقذر مكانته كإنسان أكرمه الله Y ويسترخص حياته.

وتنعكس حالة الأفراد هذه على المجتمع حين تتفشى الفواحش والرذائل بينهم، فتصبح سلوكات غالبة لا مُنكِر لها ولا مشمئز منها، وهي لا محالة من الأسباب التي تؤدي إلى هلاك المجتمعات والأمم، وتلك سنة الله التي لا تحابي فردا ولا جماعة.

ولعلّ ما ذكرناه سابقا هو مما ابتليت به مجتمعاتنا في وقتنا هذا الذي يعرف ضمورا لقيمة الحياء بين الناس، وانتشارا لبعض الصفات والسلوكات التي تترجم ابتعادهم عن هذه القيمة، ولا أدلّ على ذلك مما أصبحنا نراه ونسمعه من جهر بارتكاب المحرمات، بل وافتخار بعض المنحرفين بأفعالهم وكأنّ ميزان القيم انقلب رأسا على عقب، لا سيما في مواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت تعجّ بالصور المبتذلة والمواد الإعلامية المخلّة بالآداب،...

1-الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، **تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل القرآن**، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، 107/20.

2- حديث صحيح، أخرجه: الإمام أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م، باب حَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم الحديث: 26596، 216/44.

3 - البخاري، **صحيح البخاري**، 2268/5.

4 - ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 788/2-789.

ومن أجل ذلك، حثت الشريعة الإسلامية على التحلي بخلق الحياء، ونادت الأفراد والجماعات إلى اعتماده راية لهم، بل وجعلته مقصدا أخلاقيا حرصت على حفظه بكل الوسائل سدّا لباب الوقوع في الانحلال الأخلاقي وصيانة للمجتمع الإسلامي من كل مظاهر التفكك.

المبحث الثالث: خلق الحياء مقصد أخلاقي كُلي

مكارم الأخلاق من مقاصد البعثة المحمدية والتي كانت محور رسالته الخاتمة لقول الرسول ρ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1]. وهذه الأخلاق التي دعا الله تعالى الإنسان إلى التحلي بها أنواع عديدة، إلا أن موضوعها واحد هو تهذيب سلوك الانسان وتقويمه، لذلك فهي كثيرة ومتعددة بحيث شملت جميع سلوك الانسان وأفعاله وأقواله في مختلف جوانب حياته ومراحلها، وبناء على ذلك فإن هذه الأخلاق تختلف مراتبها وتتفاوت درجاتها.

وقد اجتهد العلماء القدامى في إحصاء مكارم الأخلاق وتصنيفها إلى أصول جامعة، وإلى فروع تفرعت عن تلك الأصول، إلا أنهم اختلفوا في تحديد كليات الأخلاق، فمنهم من حصرها في أربع كليات، ومنهم من حصرها في ثلاثة لا مجال للتفصيل فيها.

والحياء؛ من مكارم الأخلاق الجامعة التي تتصل بها باقي القيم الأخرى وتنبني عليها وتتأسس عليه وتتفرع عنه، فهو مقصد وقيمة خُلقية أولاها الإسلام عناية فائقة، وذلك لما يلي:

الفرع الأول: الحياء قرين الإيمان وخلق الإسلام

أولا: الحياء قرين الإيمان:

قررت شواهد السُنّة النبوية الشريفة الارتباط الوثيق بين الإيمان والحياء، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: «دَعْهُ، فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[2]، وقَالَ أيضا ρ: «الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ مَقْرُونَانِ، لَا يَفْتَرِقَانِ إِلَّا جَمِيعًا»[3]، وهو القائل ρ: «والحياءُ شُعْبةٌ مِنَ الإيمانِ»[4]. كما جاء في الأثر عن ابن عمر τ أنه قال: «إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»[5].

وقد جاء في فتح الباري شرح هذا المعنى: "معناه أن الحياء يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي كما يمنع الإيمان، فسُمي إيمانا كما يُسمى الشيء باسم ما قام مقامه"[6]، فكلما زادت مادة الإيمان في القلب زاد الحياء، وكلما قلت مادة الإيمان في القلب قلّ الحياء، فهما متلازمان لا ينفكان عن بعضهما البعض.

1- أخرجه: الإمام أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، رقم الحديث: 8952، باب مسند أبي هريرة، 513/14، قال: حديث صحيح؛ والإمام البخاري، **الأدب المفرد**، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3، 1409ه– 1989م، رقم الحديث: 273، باب حسن الخلق، ص104، قال الشيخ الألباني: حديث صحيح. والإمام البيهقي، **السنن الكبرى**، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 1424هـ-2003م، رقم الحديث: 20782، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، 323/10.

2 - أخرجه: البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، بَابٌ: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، رقم الحديث: 24، 29/8.

3 - الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، **المعجم الأوسط**، تح: طارق بن عوض الله بن محمد وآخرون، دار الحرمين، القاهرة، 374/4.

4 - أخرجه: مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم الحديث: 35، 63/1.

5 - ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، **المصنف في الأحاديث والآثار**، تح: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409ه، 213/5.

6 - ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379ه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، 74/1.

وجعله النبي ρ شعبة من شعب الإيمان لأنه له نفس التأثير في نفس الإنسان، فكما أن الإيمان يحول دون وقوع المؤمن في المعاصي والمنكرات، فكذلك الحياء يمنع صاحبه من معصية خالقه، وفي ذلك يقول ابْنُ الأَثير: "وَإِنَّمَا جُعِلَه (الحَيَاء) بَعْضَه (الإيمان) لأَن الإِيمان يَنْقَسِمُ إِلَى ائْتِمَارٍ بِمَا أَمر اللَّهُ بِهِ وَانْتِهَاءٍ عمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَإِذَا حَصَلَ الِانْتِهَاءُ بِالْحَيَاءِ كَانَ بعضَ الإِيمان"[1].

وبذلك فإن الحياء ليس قيمة أخلاقية فحسب، بل هو مقياس للإيمان، فمن تخلق بالحياء وصار سمته البارزة تحقق فيه الإيمان وتغلغل، ومن تخلى عن الحياء ضعف إيمانه وتضعضع.

ثانيا: الحياء خُلق الإسلام:

أعلى الإسلام من شأن الحياء ورفع من قيمته حتى جعله خُلُقه الذي يُعرف به، فكان لكُلِّ دينٍ خُلقاً وكان الحياء خُلُق الإسلام كما جاء في الحديث الصَّحيح: «لِكُلِّ دِينٍ خُلُقٌ، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»[2]، وتكملته: «من لا حياء له لا دين له»[3].

قال المنّاوي في شرح هذا الحديث: "أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه ونظامه الحياء، لأنّ الإسلام أشرف الأديان والحياء أشرف الأخلاق، فأعطى الأشراف للأشرف"[4].

كما أضاف عند شرحه للحديث في الفيض القدير: "أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه أو مروءة هذا الدين التي بها جماله: الحياء... يعني: الغالب على أهل كل دين سجية سوى الحياء والغالب على أهل ديننا الحياء"[5]، فإذا كان الإسلام معناه الخضوع والتسليم للخالق فيما أمر ونهى، فإن من مقتضيات هذا الخضوع الحياء منه سبحانه وتعالى ومراقبته في السر والعلن، فكان الحياء وفقا لذلك خُلق الإسلام وسجية المسلم الحق بامتياز.

وقد حث الشارع على التخلق بخُلق الحياء باعتباره خُلق الإسلام، فهو أصل الأخلاق لأنه: "متمم لمكارم الأخلاق، وإنما بُعث المصطفى ρ لإتمامها، ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء"[6].

الفرع الثاني: الحياء من أقوى البواعث إلى الأخلاق الأخرى وإلى الخير:

أولا: الحياء من أقوى البواعث إلى الأخلاق والفضائل الأخرى:

الحياء أصل خُلقي كلي، فهو من أقوى البواعث على بقية الأخلاق ومن أهم المحفزات على الفضائل والخيرات وفعل الصالحات، كما أنه حائل قوي بين العبد وفعل القبائح والرذائل، فهو يحمل النَّفس على ترك المنكرات، ويحميها من السقوط في مهاوي المعاصي والذنوب.

---

1 - ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، 1399هـ-1979م، تح: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، 470/1.

2 - مالك بن أنس، **الموطأ**، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي-الإمارات، ط1، 1425ه-2004م، 1330/5.

3 - ذكر ذلك في هامش الكتاب؛ يُنظر: مالك بن أنس، **الموطأ**، 1330/5. المصدر نفسه.

4 - المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط3، 1408هـ- 1988م، 340/1.

5 - المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356ه، 508/2.

6 - **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، 508/2.

وقد أبدع طه عبد الرحمن في بيان اصطحاب خلق الحياء للأخلاق الأخرى، فقال: "متى علمنا بأن الحياء يتحقق بالشعور بالكمال بما لا يتحقق به خُلق سواه، وأن هذا الشعور يُوجب موافقة الظاهر للباطن، تبّين أن الارتقاء في مراتب أي خُلق آخر يستلزم أن يصحبه الحياء، نظرا لأن صُحبته له تحث المتخلق به على أن يواصل ارتقاءه بغير انقطاع، مصححا على الدوام صلة ظاهره بباطنه، طلبا للإخلاص في هذا الخلق؛ وهكذا ينزل الحياء من الأخلاق منزلة المرشد لها في حصول التخلق بها؛ فلا يدخل الإنسان في خلق، ولا يأخذ في الارتقاء فيه إلا باصطحابه للحياء كأنما الحياء مدوَّن في بنية أي خلق كريم... فمكارم الأخلاق إنما هي الأخلاق وقد زانها الحياء"[1].

وقد زاد ابن القيم هذا المعنى شرحا وتمثيلا، فقال: "ولولا هذا الخُلقُ لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم تُقْض لأحدٍ حاجة، ولا تحرَّى الرجلُ الجميلَ فآثره والقبيحَ فتنكَّبه، ولا سَتَر له عورةً، ولا امتنع من فاحشة. وكثيرٌ من النَّاس لولا الحياءُ الذي فيه لم يؤدِّ شيئًا من الأمور المفتَرضة عليه، ولم يَرْع لمخلوقٍ حقًّا، ولم يَصِل له رَحِمًا، ولا برَّ له والدًا؛ فإنَّ الباعث على هذه الأفعال إمَّا دينيٌّ - وهو رجاءُ عاقبتها الحميدة-، وإمَّا دنيويٌّ عاديٌّ - وهو حياءُ فاعلها من الخلق-؛ فقد تبيَّن أنه لولا الحياءُ إمَّا من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبُها"[2].

ولا أدلى على أن الحياء أصل كل خُلق من حديث النبي ρ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ψ، أَنَّ النَّبِيَّ ρ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ Yإِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نُزِعَ مِنْهُ الْحَيَاءُ، لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، فَإِذَا لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ، لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، فَإِذَا لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ، لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، فَإِذَا لَمْ تُلْفِهِ إِلَّا رَجِيمًا مُلَعَّنًا، نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةُ الْإِسْلَامِ»[3].

وقد قالت عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها- في فضل الحياء: "رَأْسُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الْحَيَاءُ"[4]، فالحياء هو رأس الأخلاق كلها وزينتها، وعمودها الفقري ومرشدها، وصمام الأمان لحفظ الفضيلة والقيم النبيلة من الضياع والاندثار، من تخلّق به تحلى ببقية القيم والأخلاق، ومن فقده تجرأ على الرذائل والمنكرات، وهوى في مهاوي المعصية والضياع.

وقد قيل: "الحياء لباس سابغ وحجاب واق وستر من العيب وأخو العفاف، وحليف الدين، ورقيب من العصمة، وعين كالئة تذود عن الفحشاء وتنهى عن ارتكاب الأرجاس، وسبب إلى كل جميل"[5].

---

1 - طه عبد الرحمن، **دين الحياء: من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني**، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، 2017م، 199/1-200.

2 - ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 788/2-789.

3 - ابن ماجة، **سنن ابن ماجه**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ-2009م، 177/5.

4 - ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي، **مكارم الأخلاق**، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ب.ط، ب.ت، ص34.

5 - الوطواط، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، تح: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 1429هـ-2008م، ص28.

وإجمالا؛ فإن الحياء منبع لكل فضيلة، مانع لكل رذيلة، وهو ضابط أساسي لسلوك الفرد وأخلاقه، ومتى غاب هذا الضابط اضطرب السلوك بل انحرف بصاحبه عن سبيل الرشاد وهوى به في مستنقع الانحلال والرذيلة.

ثانيا: الحياء يحث على الخير:

الحياء أصل كل خير، ولا يأتي إلا بالخير لقول الرسول ρ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[1]، أو قال: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»[2] أَوْ قَالَ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[3].

فالتخلق بخلق الحياء يقوي إرادة الإنسان على ترك الرذائل والذنوب ويمرنها على البعد عن المعاصي والشرور، ويدفعها إلى حُب الخير، قال ابن القيم: "الْحَيَاء الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ"[4].

والحياء جامع لكل خير لأنه يصون العبد من فعل القبائح، ويعصمه من مزالق الشر، ويدفعه إلى أبواب الخير، فأنّى للمؤمن الحيي أن يتجرأ على فعل المعاصي أو فعل القبائح، لأن حياؤه يمنعه من ذلك.

والحياء زاجر النفس عن الشهوات ودافعها إلى فعل الخيرات؛ قال ابن القيم: "للإنسان آمِرَين وزاجِرَين: فله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كلِّ ما يشتهي، وله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الهوى والشهوة والطَّبيعة، فمن لم يُطِع آمِرَ الحياء وزاجِرَه أطاع آمِرَ الهوى والشهوة ولا بدَّ"[5].

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة المقاصدية في خلق الحياء نقف على أبرز النتائج:

- للحياء عند أهل اللغة معنى واحد هو الاحتشام مع انقباض النفس وانزوائها؛ خوفاً من مُواقعة القبيح، مخافة اللوم والعيب.
- وفي اصطلاح العلماء وهو تغيُّرٌ وانكسارٌ وانقباضٌ يعتري النَّفس الإنسانية خوفا مما يعاب به أو يُذم.
- والحياء حالة وجدانية نفسية لها بدايتها ولها نهايتها، حيث تبدأ من تغير يلحق الإنسان من خوف أن يُنسب إلى القبيح، وتنتهي بترك ذلك الفعل والإقلاع عنه.
- خلق الحياء يكون في رتبة المقاصد الأخلاقية الضرورية، وذلك لما يحققه من مصلحة عامة تعود على الفرد والمجتمع إذا تخلقوا به، وما يخلفه من مفاسد تصل إلى درجة الهلاك والفساد في المجتمعات.

---

1 - البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب: الآداب، باب الحياء، رقم الحديث: 5766، 2267/5؛ مسلم، **صحيح مسلم**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم الحديث: 37، 64/1.

2 - مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم الحديث: 37، 64/1.

3 - مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، رقم الحديث: 37، 64/1.

4 - ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء**، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1418هـ-1997م، ص68.

5 - ابن القيم، **مفتاح دار السعادة**، 791/2.

- والحياء مقصد أخلاقي كُلي؛ وهو رأس مكارم الأخلاق وأصل جامع تتصل به باقي القيم الأخرى وتتبني عليه.

توصيات:

مما نوصي به في هذا المقام تسليط الضوء أكثر على هذا المصطلح للكشف عن حقيقة مقصد خلق الحياء في حقل المقاصد الأخلاقية بصفة أخص، وإبراز أهم مقاصده الشرعية التي يحققها على مستوى العمران، ومن ثم الكشف عن وسائل ذلك وطرقه.

المراجع:

1. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي، مكارم الأخلاق، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ب.ط، ب.ت.
2. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، المصنف في الأحاديث والآثار، تح: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409ه.
3. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، 1399هـ-1979م.
4. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1379ه.
5. ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي، تفسير ابن عرفة، تح: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، ط1، 1986م.
6. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.
7. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، مفتاح دار السعادة، تح: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1432 هـ.
8. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1418هـ-1997م.
9. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1416هـ-1996م.
10. ابن ماجة، سنن ابن ماجه، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ-2009م.
11. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 1414 هـ.
12. أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط1، 1420هـ.

13.أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ-2001م.
14.البخاري، الأدب المفرد، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3، 1409ه–1989م.
15.البخاري، صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة-البحرين، بيروت-لبنان، ط3، 1407ه-1987م.
16.البيهقي، السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3، 1424هـ-2003م.
17.الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، تح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.
18.الجويني، ركن الدين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، غياث الأمم في التياث الظلم، ت: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط2، 1401هـ.
19.الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط3، 1420هـ.
20.الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت-لبنان، ط1، 1412 ه.
21.سية، ليلى، المقاصد الأخلاقية وتجلياتها في المنظومة الأصولية والفقهية، مقال منشور في مجلة جامعة الأمير عبد القادر، المجلد 33، العدد2، 2019م، 2019/09/30م.
22.السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، جامعة أم القرى-كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1424هـ-2005م.
23.الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ-1997م.
24.الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد وآخرون، دار الحرمين، القاهرة.
25.الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
26.طه عبد الرحمن، دين الحياء: من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، 2017م.
27.علوان، فهمي محمد، القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1989م.
28.الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة-مصر، د.ت.
29.الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، د.ت.

30.القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تح: محيي الدين ديب ميستو وآخرون، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق-بيروت، ط1، 1417هـ-1996م.
31.الكرماني، برهان الدين أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر، غرائب التفسير وعجائب التأويل= تاج القراء، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة-السعودية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت-لبنان.
32.مالك بن أنس، الموطأ، تح: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي-الإمارات، ط1، 1425ه-2004م.
33.مسلم، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت.
34.المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط3، 1408هـ- 1988م.
35.المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356ه.
36.النسفي، حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت-لبنان، ط1، 1419هـ-1998م.
37.الوطواط، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، تح: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1429هـ-2008م.
38.اليندوزي، ريحانة، التحقيق في دعوى حصر المكارم الخلقية في المقاصد التحسينية، بحث منشور في كتاب مقاصد الشريعة والسياق الكوني المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط:1، 1434هـ-2013م.